اعجاز القـــرآن
وعبد القاهر الجرجانى

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

من أعلام الإسلام القريبين فى منهج تفكيرهم من عقلية العصر الحاضر ، عالم عاش فى القرن الخامس الهجرى — منذ تسعمائة سنة — وألف فى الدراسات الإسلامية كتبا تنم عن عبقرية وعلم غزير . ذلك هو عبد القاهر الجرجانى ، أبرع من كتب فى إعجاز القرآن ، واول من وضع الأساس لعلوم البلاغة العربية .

والذى يستحق الوقوف طويلا فى حياة هذا المؤلف اهتداؤه إلى كثير من مقتضيات الطريقة العلمية الحديثة ، وادارته البحث الواسع حول فكرة مركزية واحدة ، ومعالجته لهذه الفكرة معالجة منطقية شاملة ، وأكثر ما يتجلى هذا فى بحثه لموضوع الإعجاز ، وهو موضوع شغله منذ أن كان فتى يافعا يطلب العلم على أساتذته ، يطيل النظر فيما خلف السابقون من كتب ومصنفات .

لم يلبث عبد القاهر طويلا حتى اقتنع أن العلماء ، قد وقفوا دون الغاية فى هذه الدراسة ، وأنهم لم يعطوها حقها من البسط والتفصيل ولم يلتزموا فيها حدود البحث المنظم الوافى . لذلك اتجه هو إلى أن يجعل منها علما حقيقياً كأدق ما يكون العلم فى تسلسله ونظامه ، وأن يضع لها من الأصول والقواعد ما يشارك فيه اللاحق السابق ، فالقرآن معجزة « محمد » الباقية على وجه الدهر ، ولا يزال البرهان منه لائحاً معرضا لكل من أراد العلم به . وقد صحت نظرة عبد القاهر ، وآتت جهوده ثمارها ، وانتفع الباحثون بنتائجه طوال العصور . وتنبه الامام الشيخ محمد عبده فى مستهل النهضة العلمية الحديثة إلى ما فى كتبه من أصالة وعمق ، فأشار بطبعها ، وشارك فى تصحيحها والتعليق عليها ، وجعلها محور دروسه لطلاب الأدب والبيان .

أطال عبد القاهر النظر فى قضيته الاعجاز فاهتدى إلى أن عمادها نظم القرآن ، وأن هذه هى الفكرة التى حام حولها المؤلفون السابقون ولم يطيلوا الوقوف ، وأن

سبيل الوصول إليها معرفة حقيقة البلاغة والفصاحة فى النظم ، وأن الكلام الجليل إنما تقوم روعته وبلاغته على ما فيه من نظام وترتيب وصياغة وتصوير ، وشأن الكلام فى هذا شأن الصناعات والفنون ، فكما تتفاضل الأشياء الحسية فى نظمها ونسجها وصياغتها ، ثم يعظم الفضل وتكثر المزية حتى يفوق الشىء نظيره ومحاسنة درجات كثيرة ، كذلك الكلام يفضل بعضه بعضا ، ثم يزداد من الفضل ، ويترقى منزلة بعد منزلة ، حتى ينتهى إلى حيث تنقطع الأطماع وتحسر الظنون ، وتسقط القوى وتستوى الأقدام فى العجز ، وهناك يكون الاعجاز .

وقبل أن يدخل بنا عبد القاهر فى تفاصيل هذه الدراسة الفنية ، ينبهنا إلى ضرورة دراسة الشعر العربى دراسة واضحة إذا أردنا أن ندرك بعض أسرار الاعجاز ذلك أن الجهة التى قامت بها حجة القرآن هى أنه جاء على حد من الفصاحه تقصر عنه قوى البشر ، ومحال أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب ، وعنوان الأدب وميدان القوم إذا تجاروا فى الفصاحة والبيان ، وتنازعوا فيهما قصب الرهان .

إذا انجزت هذا التمهيد فأقبل — إذن — على مهمتك الرئيسية . وهى معرفة خصائص الفصاحة والبلاغة فى الكلام . وعبد القاهر لا يرضى لك هنا مجرد المعرفة والوصف المجمل ، ولكنه يطالبك أن تفصل القول ، وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام ، وتعدها واحدة واحدة ، وتعرف عللها وأسرارها ، وتكون معرفتك بها معرفة الصانع الحاذق الذى يعلم كل خيط فى الديباج ، وكل آجرة فى البناء البديع .

على هذا يمضى عبد القاهر فيما قصد إليه من تحليل الكلام البليغ ، وإظهار أن نظمه يجرى على وفق معانيه فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والإثبات والنفى والتنكير والتعريف والإيجاز والاطناب والفصل والوصل ما إليها ، ويتتبع كل باب من هذه ضروبه وأشكاله ، وتنوع بلاغاته ، ويسوق له المثل بعد المثل ، ويقف بين الحين والآخر عند آية من كتاب الله . فيحللها على هذه الأسس التى وضعها ليبين لك أن ما يبهرك من آيات الذكر الحكيم إنما مرجعة إلى ما فى نظام هذه الآيات من فضل ومزية ، وإلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، ووضع كل منها وضعها المناسب . خذ مثلا قول الله تعالى فى قصة الطوفان : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا

للقوم الظالمين) . ثم انظر وتدبر وحاول أن تتبين مبعث ما يهرك فى هذه الآية من روعة وجلال ، وأن الآية من أولها إلى آخرها مجموعة أسرار ودقائق يدركها الحاذقون بعلم المعانى ، تتمثل فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم أن كان النداء بيا ، ثم فى إضافة الماء إلى الكاف ، دون أن يقال ابلعى الماء ، ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء ، فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة فى ذوق الاستعمال العربى على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله تعالى : وقضى الأمر ، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو : استوت على الجودى ثم اضمار السفينة قبل ذكرها ، وذلك شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة ، وفى ذلك اتساق طرفى الآية وحسن سبكها .

وهكذا يسير عبد القاهر فى خصائص الكلام البليغ بابا بعد باب ، وكلما قرر وجها من وجوه الفلسفة الذوقية اتبعه بتحليل بعض آيات القرآن وروائع الأدب العربى تحليلا يكشف عن ذهن لماح وحس دقيق خذ مثلا — قول الله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) وقوله (وفجرنا الأرض عيونا) ولاحظ ما حدث فى كل منهما من استعارة أو تغيير فى أوضاع الألفاظ : فالأصل أن يقال اشتعل شيب الرأس وفجرنا عيون الأرض . ولكن أين هذا من ذاك ! إن الآية الأولى أفادت مع لمعان الشيب فى الرأس شموله وانتشاره ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، حتى لم يبق من السواد شىء ، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به ووزان هذا أنك تقول اشتعل البيت نارا ، تريد أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها قد استولت عليه ، وأخذت فى طرفيه ووسطه ، فإذا قلت : اشتعلت النار فى البيت لم يفد ذلك ، بل لم يقتض أكثر من وقوعها فيه ، أو إصابتها جانبا منه ، وكذلك القول فى الآية الثانية ، فأسلوبها يفيد أن الأرض صارت كأنها كلها عيون ، وأن الماء كان يفور من كل مكان فيها .

والفصل والوصل من الظواهر الخفية المسالك فى الكلام البليغ ، بل لقد قيل إن البلاغة هى معرفة موضع كل منهما . ولهذا يتعمق عبد القاهر أسرارهما ، ويعرض الآية بعد الآية ، والمثل بعد المثل ليدل على أن الجمل المتجاورة لاتوصل أو تفصل اعتباطا ، ولكن لسر يقتضيه سياق النظم البليغ . وكذلك يفعل فى ظاهر الذكر والحذف حتى إذا جلى أسرارها ، عرض عليك قول الله تعالى : (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ؟ قالتا :

لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، قال رب انى لما أنزلت إلى من خير فقير)، ثم دعاك إلى ملاحظة حسن النظم الكريم فى حذف المفعول فى المواضع الأربعة من الآية، اذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما قالتا لانسقى غنمها. ولا يخفى على ذى بصر أن ذكر هذه المفعولات هنا ليس من المهم ولا من المطلوب فى السياق، وأن رصانة النظم فى أن يؤتى بالفعل مطلقا، اذ الغرض يتم بأن يعلم أنه حصل من الناس سقى، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى بعد ذلك سقى.

وفى التقديم والتأخير بين أجزاء الجملة العربية طرائف وأسرار تدركها إذا تأملت فى مثل قوله تعالى قل أغير الله أتخذ وليا! أن تقديم « غير » مع الاستفهام هنا أفاد معنى جميلا، كأنه قيل: يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا! أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك! أيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك! وهذا المعنى لم يكن ليحصل لو لم يكن النظم على هذه الصورة. ومثاله فى ذلك قوله تعالى: (قل أرأيتكم أن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغير الله تدعون أن كنتم صادقين!).

هذه النظرية العلمية التى قررها عبد القاهر فى « دلائل الاعجاز » وسماها نظرية النظم تكملها نظرية أخرى له فى كتابه « أسرار البلاغة » خلاصتها أن التأثير هو الهدف الذى يرمى إليه الكلام الجميل، ومن هنا كانت الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل وسائل لتجميل الكلام وحسن تصويره، ذلك لما لها فى نفس سامعها أو قارئها من توضيح للمعنى المراد أو تقويته، أو تقريب لبعيده، أو ابراز للمعنى منه فى معرض حسى، أو احالة للمجهول منه على مألوف معلوم.

فالكلام البليغ الجميل — إذن — فى رأى عالمنا الناقد، يجب أن يتحقق فيه شرطان رئيسيان: أن يجرى نظمه وفق مقتضيات المعانى، وأن تكون صياغته مؤثرة وهاتان الفكرتان الكبيرتان هما اللتان افسدهما البلاغيون المتأخرون فى عصور التقليد، فحولوهما إلى فروع وأبواب شكلية، ونسوا المنهج العلمى الذى أوحى بهما، وبعدوا بذلك عن ادراك الأسرار الحقيقية لبلاغة القرآن.

وقد أدرك الفكر الحديث مافى دراسات العصر الإسلامى الذهبى من أصالة وعلم وابتكار، فأخذ الآن يحيى معالمها، ويصل تفكيره بها، ويذكر أعلامها بما يستحقون من اجلال واكبار.

بمناسبة مولد السيدة زينب :

إصلاح الموالد وتطويرها

بين مشيخة الطرق الصوفية

ومحافظة القاهرة

« استجابت محافظة القاهرة مشكورة لدعوة مشيخة الطرق الصوفية الخاصة بإصلاح الموالد وتطويرها ، بما يتسق ويتفق مع روح الإسلام ونهضتنا البناءة الكبرى .

ولقد تجلت الجهود الطيبة الموفقة التى بذلها السيد / الأستاذ صلاح الدسوقى محافظ القاهرة فى مولد السيدة زينب رضى الله عنها ، حيث تحولت ساحة المولد ، إلى معارض ثقافية ، وندوات روحية ، ومجالات للبر والتعاون والتوجيه الهادف المثمر .

وانتفت وزالت تلك المهازل الكريهة ، والمظاهر الهابطة من صور الشعبذة الهازلة ، التى كانت تنال من كرامة المولد وقداستها ، ومن جلال التصوف وكماله .

وتقديراً للجهود الكريمة ، وتدعيما لها ، وطلبا لاستمرارها ، حتى نصل برسالة الموالد إلى أهدافها الحقيقية .

تحقيقاً لهذا كله كتب سماحة السيد / محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، للسيد محافظ القاهرة الخطاب التالى :

السيد الأستاذ الكبير صلاح الدسوقى محافظ القاهرة :

تحية طيبة ، وبعد : فإن مشيخة الطرق الصوفية ، يسرها أن تتقدم شاكرة ومقدرة لسيادتكم تلك الجهود الهادفة الموفقة التى بذلتموها سخية قوية ، فى سبيل إبراز الاحتفال بمولد السيدة زينب حفيدة النبى ، فى تلك الصورة الكريمة الجليلة ، التى تتسق مع نهضتنا البناءة المتطورة ، وتتفق مع روح عقيدتنا الإسلامية السامية .

فلقد جاء الاحتفال فى عهدكم ، بفضل توجيهاتكم ، إسلاميا قوميا ، معبراً عن خطواتنا التقدمية ، منزها عن تلك الصور الرجعية ، الدخيلة على التصوف والصوفية ، مبرأ من تلك المساخر الهابطة التى تشوه مثاليات الإسلام وتنال من جلال الموالد وفكرتها التاريخية ، كمواسم دينية ملهمة ، وأعياد قومية موجهة ، ومهرجانات شعبية تعبر عن روح أمتنا ، وتصور خصائص شعبنا ، وترشد إلى عراقة مواريثنا الدينية ، تلك المواريث التى أمدت قلوبنا عبر التاريخ الطويل بالنبضات الإيمانية الدافئة الحية ، والعزمات الصانعة القوية ، التى صمدت عزيزة أبيه فى وجه كل القوى الانحلالية . والغزوات الفكرية والمذهبية .

ولقد سبق لمشيخة الطرق جهوداً متعددة متكررة فى سبيل هذه الغاية النبيلة ، فاتجهت أول ما اتجهت إلى رجالها ووكلائها وأبناء الطرق كافة توجههم وترشدهم إلى آداب الذكر الشرعى وواجباته ، وإلى معانى الاحتفال بأولياء الله ، كرجال أطهار أبرار مجاهدين فى كل ميدان من ميادين الحياة ، لإعلاء كلمات الحق والخير .

نحتفل بهم كنماذج إيمانية عالية ، وكبطولات صانعة ملهمة ، فنستمد من الذكرى قوة لأرواحنا ، وأدبا لحياتنا ، ومثاليات لأخلاقنا ، وعزما وتصميما على أن نسمو بأنفسنا وبواجباتنا وبرسالتنا لنكون كما أراد الله خير أمة أخرجت للناس .

ثم اتجهت المشيخة إلى الجهات الرسمية تلتمس مساعدتها ونفوذها ، فكتبت إلى وزارة الداخلية طالبة أن تحتفظ للموالد بإشعاعاتها الروحية والخلقية فتنزهها ونطهرها من دور الرقص والمجون ، وأماكن اللهو والميسر ، وأن تصان كرامتها فتمسح عن وجهها ذلك التشويه البغيض الممثل فى آلات الطبل والزمر ، والأزياء الغريبة ، والندوات الخليعة ، والدخلاء على الصوفية والأدعياء فى التصوف .

وتوالت رسائل المشيخة إلى الجهات المختصة فى وزارات الأوقاف والإرشاد والشئون البلدية تلتمس عونا منها فى سبيل ما تنشده من إصلاح الموالد وإبرازها فى صورتها الإسلامية والقومية الرفيعة .

كما اقترحت أيضا أن تتحول ساحاتها الفسيحة إلى معارض وطنية ومنابر ثقافية ، وساحات شعبية ، وأن ينبثق كل هذا ويصدر عن روح موجهة ، وشعور مدرك لعظمة هذه المناسبات التى تهفو لها قلوب الجماهير ، ويتعلق بها وجدانها ، وأثر ذلك كله فى بناء حياتنا وتطور تفكيرنا ، وفهمنا لديننا ولرسالته الروحية والخلقية .

وأخيراً فإننا نحمد الله سبحانه أن وفقكم لتحقيق هذه الدعوة — وهى دعوة كل محب لدينه وعروبته — فأسديتم إلى التصوف والصوفية يداً كريمة ومشيتم بالإصلاح الفاقه المستنير إلى قطاع من أكبر قطاعات مجتمعنا ، ووضعتم بذوراً حية فى حقلنا الايمانى ستنمو بإذن الله وتتطور وتؤتى أكلها خيراً وهدى وقوة مباركة .

زادكم الله توفيقا وسدادا فى ظل الراية الكبرى التى تخفق فى سمائنا عزيزة ملهمة ، فى يد زعيمنا المصلح المجدد الرئيس جمال عبد الناصر محرر العروبة وبطل السلام وداعية الايمان والعزة والأخلاق والحرية للناس كافة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .